من تراب (٢٤٧) الأدب وشجونه ! (*) الطريق!

هل يكتب الأدب لإزجاء الفراغ ؟ وهل يقبل عليه القراء للتسلية وشغل الوقت ؟! هذا السؤال شغل العقاد قبل أكثر من سبعين عاما، فكتب فيه عدة مقالات نشرت تباعا فى مجلة " المشكاة "، ونحن نصادر الآن مجلة " إبداع "، وأعيد نشره فى كتاب " مطالعات فى الكتب والحياة "، وأعادت دار المعارف طبعه عام ١٩٨٧ .

ما الحياة وما الأدب ؟! .. إنهما نسيجان من مادة واحدة، فالحياة هى شعور تتملاه فى نفسك وتتأمل آثاره فى الكون وفى نفوس غيرك، والأدب هو ذلك الشعور فى الصياغة أو القالب الذى يلائمه من الكلام .. فالأدب لا يكون بغير حياة، والحياة لا يستقيم تذوقها ومعرفة مكنونها بغير أدب .

واعتبار الأدب تسلية أو ملهاة، هو الذى يصرفه عن دوره، وعن عظائم الأمور، ويوكله بعواطف البطالة والفراغ . العواطف أشبه بالتلهى وأقرب إلى ما لا مبالاة به ولا خطر فيه، واعتبار الأدب تسلية وملهاة هو الذى يرفع كلفة الجد والنظر الصادق .. وهو علة ما يطرأ على الكتابة والشعر من التزويق والبهرج الكاذب والولع بالمحسنات اللفظية والمغالطات الوهمية، مادام الكاتب مشغولا بشغل أو مداعبة الوقت، وليس مهموما بجلائل الأمور !

وهذه العلة الفاسدة هى المرض الذى كان قد أصاب آداب اللغة العربية وهبط بها حين شاع مذهب البديع فى أواسط الدولة العباسية، وتطرق إليه

(*) المال ٢٠٠٩/٤/٢٢

كثير من عيوب اللفظ والمعنى فى تملق الملوك والأمراء الذين صارت تسليتهم ومنادمتهم فى أوقات فراغهم هى غاية الأدب والأدباء .. فشاعت فى الصياغة معانى التظرف فى المنادمة والتسلية وضروب التوشية والتزويق المموه وأشتات الجناس والطباق والمقابلة والطى والنشر والتفويف والتوشيع .. وهى كلها مترادفات تجمعها كلمة " التصنع " ! أو هى بإجمال الحد الفارق بين الأدب المصنوع والأدب المطبوع !

ولم يكن هذا المرض علة مقصورة على الأدب العربى، بل أصاب هذا الانحطاط الآداب فى جميع اللغات، مثلما حدث فى الفرنسية فى أعقاب عهد لويس الرابع عشر حتى أدركته بوادر الثورة الفرنسية، وأوشك ذلك أن يحدث للأدب الإنجليزى بعد عهد اليصابات لولا أن تقدمت ثورة الشعب الإنجليزى فأنقذت الأدب ولم تدع للملوك والنبلاء سبيلا للتحكم فيه وجعله وقفا على أذواقهم وشهواتهم !

ربما اختلفت أعراض الانحطاط بعض الاختلاف بين مكان وآخر . أو بين عصر وعصر وبين لغة ولغة، ولكنها تجمعت فى آداب التلهى والتسلية !

وقفة العقاد قبل أكثر من سبعين سنة استحضرت آفات الماضى التى أصابت بالغثاء صنعة الأدب والكتابة فلم ينج منه إلاّ قلة قليلة مبدعة، وجعل كل من هب ودب ينسب نفسه أو عمله إليها، حتى رأينا غثاءً تافيا رديئا ينسب نفسه إلى لغة الصوفية، ويصطنع الشعر فى سوقية فى اللفظ والمعنى، ثم رأينا المصادرة لا تصادر العمل الفاسد أو المنحط، وإنما تتسع للنافذة نفسها فتغلقها تغليقا تاما يجهض كل ما تقدمه من إبداع لا يجوز مصادرته كله وغلق النافذة التى يتنفس منها لمجرد أن تسرب منها عمل واحد معطوب !

قد توارت فى زماننا مجلات الأدب والإبداع، وغلبت السياسة والمصانعات على القلة القليلة التى بقيت شكلا وأجهضت موضوعا، ولم

تعد الصحف تعطى مساحة للأدب، بينما كنا نرى افتتاحيات الصحف الكبرى للعقاد وطه حسين والحكيم وأترابهم، وطفا على السطح زبد ورغى ولغو لا ينتمى لأدب الجد ولا حتى لأدب التسلية وإزجاء الفراغ، وانعكس ذلك كله على ركاكة اللغة، وشمل ذلك صناعة الكتابة مثلما شمل صياغة الأحكام والمرافعات، وصارت اللغة العربية غريبة فى بلادها، مثلما صار العربى غريبا مستغربا فى بلده، تائها بين أصوله وجذوره التى زحفت عليها تراكمات الانهزام والتراجع، وبين ما يرنو إليه حكامه عبر لجج المحيط إلى حيث مصدر النفوذ والثروة، أو إلى حيث اتقاء ما قد يخل بالاستقرار والرغبة فى استمرار البقاء !!!